

التفكير النقدي عند أبي العباس المبرد الأستاذة حياة مستاري / جامعة باتنة

الملخص

تهدف هذه الدراسة إلى الإجابة عن جملة من التساؤلات من أهمها: إلى أي حد كان الدرس النقدي حاضرا في كتابات المبرد، وما هي المرجعيات التي تحكمت في خطابه النقدي؟ وما هي أبرز إسهاماته النقدية؟ وكيف يمكن قراءة هذه الإسهامات في ضوء النقد العربي المعاصر الذي لا يزال يعيش تأثيرات هذه القضايا في دراساته النقدية المعاصرة؟
توطئة

يعد أبو العباس محمد بن يزيد المبرد الشمالي الأزدي قمة من قمم اللغة والأدب والبلاغة في القرن الثالث الهجري وأحد الكتاب الموسوعيين الذين أثروا الثقافة العربية بمؤلفاتهم الغزيرة. فقد كان شخصية فذة متعددة المواهب، واسع الثقافة، خصب الفكر، قوي الحافظة، فصيح اللسان، حسن المحاضرة، نبغ في اللغة والنحو والصرف وعلوم القرآن والبلاغة والأنساب والشعر وتراجم الرجال والأدب والأخبار، وأخذ من كل فن بطرف.

وقد حظي الخطاب النقدي بنصيب لا يستهان به في مؤلفاته العديدة وبخاصة كتابه "الكامل" الذي عدّه ابن خلدون ركنا هاما من أركان أربعة يقوم عليها فن الأدب، والذي ضمنه جملة من آرائه النقدية الأصيلة التي اعتمد في تقريرها على ذوقه الفني الرفيع وحسن تمثله للأدب العربي تمثلا عميقا سرى في كيانه سريان الدم في العروق، ثم على منهجية علمية دقيقة استلهمها من غزارة علمه وتبحره في مختلف فنون المعرفة، ثم على شخصية استقلالية قوية ذات توجه خاص في الاستدلال.

ومن أبرز تجليات الخطاب النقدي لدى المبرد اهتمامه بثنائية اللفظ والمعنى التي ملأت الدنيا وشغلت الناس في عصره، ومعالجته لإشكالية القديم والجديد التي فرضت نفسها على الساحة في العصر العباسي الذي شهد ازدهارا أدبيا غير مسبوق، وتجديدا واسعا في المعاني والمباني، ومقاربتة لعلاقة الشعر بالخطابة التي أثّرت بسبب بروز الحاجة إلى

الجدال والمناظرة ومقارعة الحجة بالحجة والتي استدعت المزج بين المعاني الشعرية والمعاني الخطابية، ودراسته لمشكلة السرقات الأدبية التي تعد فرعا عن الصراع بين القديم والجديد لكنها استقطبت كثيرا من الجهود النقدية حتى أضحت مسألة مستقلة أسالت أنهارا من حبر النقاد، وغيرها.

وقد خلف المبرد تأليف غزيرة ضاع كثير منها ولم يصلنا إلا عناوينها أو شذرات منها موزعة في كتب من جاؤوا بعده والذين استفادوا من علمه. وهي متنوعة تنوع ثقافته وإن غلب عليها الجانب النحوي واللغوي، وفيها أيضا علوم القرآن والمختارات الشعرية وكتب الأدب التي تضمنت آراءه النقدية كالكامل والفاضل والروضة وغيرها. فهذه الآراء التي توضح موقفه من جملة القضايا النقدية التي كانت مطروحة في عصره، نجدها مبنوثة في كتب الأدب التي ألفها أو أملاها على طلبته، ومنها نستطيع أن نكوّن صورة متكاملة عن خطابه النقدي .

أولا : المبرد والنقد

كان المبرد غزير العلم، كثير الحفظ، فصيح اللسان، بارع البيان، إماما في العربية، وشيخ أهل النحو بالبصرة وبغداد، عالما، ثقة، وفير الإنتاج، لم يفته فن من فنون العربية أو علم من علوم الدين إلا وألف فيه، وقد غلبت عليه شهرة اللغوي النحوي لبراعته في هذا التخصص: "لو ترافعنا إلى آثاره لتبين لنا أن النحو ظفر من أبي العباس بالحظ الوافر والنصيب الأكبر، فقد كان غالبا عليه، ومستبدا بجهده، وله مؤثرا، وفيه راغبا، وأنفس كتبه جاءت فيه"². وشهد له مترجموه بكثرة محفوظه في اللغة وسعة اطلاعه على دقائقها وشواردها حتى اتهم بالوضع. قال المفجع البصري: " كان المبرد لكثرة حفظه اللغة وغريبها يتهم بالوضع"³.

وقد غطت هذه الشهرة على جوانب هامة من جهوده العلمية ومنها إسهاماته النقدية التي طالتها ظلال شهرته النحوية، مما جعل كثيرا من الدارسين يخرجونه من زمرة النقاد، ويركزون على جهوده اللغوية

² محمد عبد الخالق عزيمة . أبو العباس المبرد وأثره في علوم العربية. مكتبة الرشد .

الرياض. ط 1 . 1405 هـ. ص 36

³ ياقوت الحموي. معجم الأدباء. دار الغرب الإسلامي. بيروت . ط 1 . 1993 م . ج 6 . ص

والنحوية التي أكمل بها مسيرة سيبويه وأثراها وتزعم بها مدرسة البصرة. والحقيقة التي تصادفنا ونحن نستعرض حياة المبرد وإنجازاته أن ثقافته الموسوعية المتشعبة التي استوعبت علوم عصره وآدابه وفنونه، وشخصيته المتعددة المواهب التي جعلته يأخذ من كل فن بطرف قد أهلته لأن يدلي بدلوه في مجال النقد، وأن يسجل إسهاماته النقدية المتميزة في عدد من كتبه، عبر بها عن موقفه من جملة القضايا النقدية التي كانت متداولة في عصره، وأثرى بها ساحة النقد آنذاك، يرفده في ذلك ما حوت حافظته من ثروة شعرية تمتد من العصر الجاهلي إلى أيامه، وما يتمتع به من ذوق رفيع في تمييز الشعر وتقييمه، ومعرفة جيدة من رديئه، وما وضعه من مقاييس وموازين أثناء تعرضه للإنتاج الأدبي الذي يرويه ويشرحه ويقيمه.

وقد كان تضلعه في مختلف العلوم والفنون وشهرته العلمية التي طبقت الأفاق، وتركية شيوخه له، وكثرة تلاميذه ومريديه، يعطي لآرائه وزنا معتبرا، وبعدها خاصا، ويجعل استشهاده به موقفا نقديا يحسب له حسابه: "إن المبرد كان أستاذا لكثير من الأجيال في القرن الثالث. ولذا أصبح رأيه فيما يقبله وما يدفعه عمدة لدى النقاد في أواخر ذلك القرن أو في مطلع الرابع"⁴. وعلى الرغم من أنه لم يؤلف كتابا خاصا في النقد إلا أن نظراته النقدية، وملاحظاته الدقيقة، وتقييمه للشعر والشعراء المبتوثة في كتبه كفيلا - إذا تم جمعها - بأن تعطينا صورة واضحة عن اتجاهه النقدي، ورأيه في القضايا التي كانت مطروحة في عصره.

لقد عاش المبرد في عصر اغتنت فيه الثقافة وازدهرت، وراجت سوق العلم أيما رواج، وتألقت في سمائه أسماء العلماء. وكانت الصورة النموذجية للعالم آنذاك هي التبحر في العلوم كلها، والأخذ من كل علم بطرف، ولا تعلق رأيته ويشيع ذكره إلا إذا كان من هذا الصنف الموسوعي الذي لا يخفى عليه شيء. وقد نضج علم النقد ودخل مرحلته المنهجية بكتاب ابن سلام الجمحي الذي جمع الآراء النقدية المبعثرة في كتاب مختص يعد من أوائل كتب الطبقات عند العرب: "فقد وصل ما أصَّله الأدباء واللغويون، وتناوله تناولا حسنا، وزاد عليه زيادات قيمة، ففي

⁴ إحسان عباس. تاريخ النقد الأدبي عند العرب. دار الثقافة. بيروت. ط 4. 1404 هـ -

كتابه صورة لحياة النقد منذ نشأ في الجاهلية إلى أوائل القرن الثالث، وصورة للأذواق المختلفة، والأذهان المختلفة التي خاضت فيه، ولقد كانت الأفكار في النقد مبعثرة لا يربطها رابط حتى جاء ابن سلام فضم أشتاتها وألف بين المتشابه منها بروح علمي قوي⁵، ثم تطور واتسعت مجالاته بظهور نخبة من هؤلاء العلماء الموسوعيين الذين أثره، كالجاحظ وابن قتيبة والمبرد والصولي وابن المعتز وثلعب والأخفش والأمدي وغيرهم. وهؤلاء جميعا: " جمعوا بين العلم بالنحو والعلم باللغة والأدب، وليس منهم جميعا إلا من له أثر في نقد الشعر بتحليل له، أو حكم عليه، أو شرح لبعض ظواهره، أو مفاضلة بين رجاله، أو تأليف فيه"⁶.
ثانيا: مرجعياته النقدية

تتلذذ المبرد على نخبة من علماء عصره الأفاضل الذين جمعوا أطراف العلوم وحوت صدورهم معارف العصر وتركوا بصماتهم الواضحة في الثقافة العربية الإسلامية في زمن بلغت فيه الحضارة أوجها، واكتملت فيه معظم العلوم ونضجت واستوت على سوقها وأنت أكلها، ولعل أبرز ظاهرة ميزت هذا العصر: " أن الموالي من الفرس وغيرهم تم تعريبهم كما تم تحضير العرب، فنهضوا جميعا بحياة عقلية وأدبية خصبة هي ثمرة امتزاج الثقافات الأجنبية من فارسية ويونانية وهندية بالثقافة العربية الموروثة"⁷. وقد لقي هذا المناخ الثقافي الخصب من المبرد ذكاء حادا، وحافضة قوية، ونبوغا منقطع النظير، مكنه من استيعاب هذه الأنهار من المعرفة الغزيرة التي فجرت مواهبه، وصقلت ملكاته، وهذبت ذوقه، ووسعت مداركه، وصنعت منه نادرة ثقافية، كان لها أثرها الواضح في إثراء الساحة الفكرية بما جادت به قريحته من العلم والمرويات، وما تخرج على يديه من أفواج المتعلمين على مدار سنوات عمره الذي أمضاه في الدرس والتعليم.

ومن بين الشيوخ الذين لازمهم المبرد وأخذ عنهم أبو إسحاق إسماعيل بن إسحاق القاضي الذي كان عالما باللغة والتصريف، وأبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ إمام الأدب في عصره فقد لازمه إلى آخر

⁵ طه أحمد إبراهيم. تاريخ النقد الأدبي عند العرب. مكتبة الفيصلية. مكة المكرمة. ص 111

⁶ المرجع نفسه، ص 144

⁷ شوقي ضيف. النقد. سلسلة فنون الأدب العربي. دار المعارف. القاهرة. ص 40

أيام حياته، وسمع منه وروى عنه، وقد نسج كتابه الكامل: " على منوال البيان والتبيين وحذا حذوه في كثرة الاستطراد، وضمّن كتابه الكامل كثيرا مما أخذه عن الجاحظ ونسبه إليه"⁸ ، وأبو عمر صالح بن إسحاق الجرمي وكان علما في النحو واللغة وعلوم الفقه، وأبو حاتم السجستاني النحوي اللغوي المقرئ الذي كان إماما في الأدب، كثير الرواية، عالما باللغة والشعر، وأبو عثمان بكر بن محمد المازني إمام النحو والأدب في عصره، والذي كان يعرف للمبرد قدره، وينزله منزلته على الرغم من حداثة سنه. **يقول سهل بن أبي سهل البهري وإبراهيم بن محمد المسمعي** : رأينا محمد بن يزيد المبرد وهو حدث السن، متصدرا في حلقة أبي عثمان المازني يقرأ عليه كتاب سيبويه، وأبو عثمان في تلك الحلقة كأحد من فيها.⁹

وقد شهد له العلماء بعلو كعبه ومنزلته الرفيعة في دنيا العلم وهو لا يزال في بداية حياته العلمية، إذ يروي الزبيدي أن اليوسفي الكاتب حدثه قائلا: " كنت يوما عند أبي حاتم السجستاني إذ أتاه شاب من أهل نيسابور فقال له: يا أبا حاتم إنني قدمت بلدكم وهو بلد العلم والعلماء وأنت شيخ هذه المدينة، وقد أحببت أن أقرأ عليك كتاب سيبويه، فقال له: الدين النصيحة، إن أردت أن تنتفع بما تقرأ فاقراً على هذا الغلام محمد بن يزيد، فتعجبت من ذلك"¹⁰. وقد صدق فيه حدس السجستاني فبعد وفاة شيخه المازني آلت إليه زعامة النحويين بلا منازع، فطارت شهرته في الآفاق، وتسامع به القاصي والداني، وأقبل إليه طلبة العلم من كل حدب وصوب، وصار علمه محجة تُحتذى.

وعندما ترجم له الزبيدي في طبقات النحويين قال عنه: "كان المبرد من العلم وغزارة الأدب وكثرة الحفظ وحسن الإشارة وفصاحة اللسان، وبراعة البيان وملوكية المجالسة، وكرم العشرة وبلاغة المكاتبة، وحلاوة المخاطبة، وجودة الخط، وصحة القريحة وقرب الإفحام، ووضوح

⁸ محمد عبد الخالق عزيمة . أبو العباس المبرد وأثره في علوم العربية. مكتبة الرشد .

الرياض. ط 1 . 1405 هـ . ص 13

⁹ أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي ، طبقات النحويين واللغويين . تحقيق: أبو الفضل إبراهيم.

دار المعارف. القاهرة. 1973 م . ص 101

¹⁰ المصدر نفسه . ص 101

الشرح وعذوبة المنطق على ما ليس أحد عليه ممن تقدم أو تأخر عنه، وكان نحويا مقدما عالما أديبا شاعرا¹¹.

وممن نوة به أيضا ياقوت الحموي الذي قال: " كان إمام العربية وشيخ أهل النحو ببغداد، وإليه انتهى علمها بعد طبقة الجرمي والمازني"¹²، وجمع أبو بكر بن أبي الأزهر فضائله فقال: " كان أبو العباس بن يزيد من العلم وغازرة الأدب، وكثرة الحفظ، وحسن وبلاغة المكاتبة، وحلاوة المخاطبة، وجودة الخط، وصحة العزيمة، وقرب الإفهام، ووضوح الشرح، وعذوبة المنطق ما ليس عليه أحد ممن تقدمه أو تأخر عنه"¹³، وعده ابن جني جيلا قائما بذاته في مجال العلم والمعرفة: " المبرد يعد جيلا في العلم، وإليه أفضت مقالات أصحابنا(أي البصريين) وهو الذي نقلها وقررها وأجرى الفروع والعلل والمقاييس عليها"¹⁴.
هذه الخلفية الثقافية الخصبة التي تفاعلت بقوة مع ملكات المبرد العقلية ومؤهلاته النفسية هي التي جعلت منه علما من أعلام الفكر والأدب في عصره، وبوآته المكانة العالية التي وصل إليها، وجعلته مرجعا موثوقا، يستأنس بأقواله، ويستشهد بأرائه، فنال الحظوة والاحترام وتسابق الشعراء لمدحه فقال عنه بعضهم:

وإذا يقال من الفتى كلُّ الفتى *** والشيخ والكهل الكريم العنصر
والمستضاء بعلمه وبرأيه *** ويعقله قلتُ : ابن عبد الأكبر¹⁵
ومدحه بعضهم الآخر بقوله :

وأوتيتَ علما لا يحيط بكنهه *** علوم بني الدنيا ولا علم ثعلب
يروح إليك الناس حتى كأنهم *** ببابك في أعلى منى والمُحصَّب¹⁶
ثالثا: موقفه من القضايا النقدية الكبرى

عرف النقد في القرن الثالث الهجري تطورا كبيرا تبعاً للتطور المشهود الذي عرفه الشعر والنثر في زمن بلغ فيه المسلمون من العمران

¹¹ المصدر نفسه ، ص 101

¹² ياقوت الحموي. معجم الأديباء. ص 2679

¹³ الزبيدي ، طبقات النحويين واللغويين ، ص 110

¹⁴ أبو الفتح عثمان بن جني . سر صناعة الإعراب . تحقيق: حسن هنداوي. دار القلم . دمشق.

¹⁵ ط 1 . 1985 م . ج 1 . ص 130

¹⁶ ياقوت الحموي. معجم الأديباء. ج 6 . ص 2683

¹⁶ المصدر نفسه. ج 6 . ص 2683

والسلطان ما لم يبلغوه من قبل، فقد أثمرت فيه الفنون وزهت الآداب، ونقلت العلوم الأجنبية، ونضج العقل العربي فوجد سبيلا للبحث ومجالا للتفكير. وخطا النقد الأدبي خطوات جديدة في سبيل تكوين بنائه وإقامة منهجيته بعد أن عملت الثقافة الجديدة الثرية على دعم الطبع وصقل الذوق، لدى الشعراء والأدباء¹⁷. يقول أحمد أمين: " إذا وصلنا إلى النقد في العصر العباسي رأينا إمعانا في الحضارة والترف، رأينا الشعر والأدب يتحولان إلى فن وصناعة، بعد أن كانا يصدران عن طبع وسليقة، ورأينا كل مجموعة من المعارف تتحول إلى علم، حتى اللغة والنحو والصرف، فكان طبيعيا أن يتحول الذوق الفطري إلى ذوق مثقف ثقافة علمية واسعة، وأن يتأثر بهذه الثروة العلمية الأدبية الواسعة"¹⁸.

وأثرت البيئة الجديدة بكل أشكالها وأطيافها على اتجاهات الشعراء فتفاعلوا معها وظهرت السمات التجديدية في أغراض الشعر ومعانيه وأوزانه وقوافيه، فاستثار ذلك اهتمام النقاد الذين وضعوها تحت الدراسة وتتبعوها بالتقييم. ونبغ في هذا العصر كثير من الشعراء الذين أثاروا الجدل بما ضمنوا قصائدهم من المعاني الجديدة، وبما ابتدعوه من طرائق في توظيف اللغة، فوجدوا المؤيدين لهم والمعارضين، وكان للخصومات التي أثيرت حول الشعراء أثرها البعيد في تطور النقد وتشعب مباحثه واتساع قضاياها، فقد دفعت هذه الاختلافات والخصومات النقاد إلى اللجوء إلى التأليف لمعالجة المشكلات النقدية التي شاعت بينهم، والتي: " تتعلق بالشاعر والطبع والتكلف، والبيئة والشعر، وصلة الحياة والدين والأخلاق والناس، وأثره في النفس ودوافعه وغاياته، وأسلوبه وجوانب الجمال فيه، وكانت هذه الكتب علامات في الطريق لتاريخ النقد ومذاهبه"¹⁹.

وفي ظل هذه الظروف المستجدة أيضا بدأ النقد الأدبي يخطو خطواته نحو الدقة والعمق: " والتحليل الواضح المفصل، وأخذ يحاول في تدرج الوصول إلى النقد المنهجي القائم على أسس ثابتة، وقواعد

¹⁷ مصطفى عبد الرحمن إبراهيم . في النقد الأدبي القديم عند العرب . مكة للطباعة . 1419 هـ - 1998 م

¹⁸ أحمد أمين . النقد الأدبي . مطبعة لجنة الترجمة والتأليف والنشر . القاهرة . 1963 . ص

¹⁹ محمد زغلول سلام . تاريخ النقد الأدبي والبلاغة حتى القرن الرابع الهجري . منشأة المعارف . الإسكندرية . ص 18

موضوعية²⁰. وكان المبرد واحدا من الشخصيات الثقافية البارزة التي رسمت الخطوط العريضة لهذا العهد، وأحد الرواد الذين أسهموا بحضورهم القوي في إثراء الساحة النقدية بما بثه من آراء ومواقف. وفيما يلي توضيح لبعض القضايا النقدية التي نالت اهتمامه، وأدلى فيها بدلوه.

أ: اهتمامه بقضية اللفظ والمعنى

ولدت قضية اللفظ والمعنى في النقد العربي في أحضان الدراسات الإجازية التي طرحت إشكالية: هل القرآن معجز بلفظه أم بمعناه؟ ثم انتقل هذا التساؤل إلى مجال الأدب لأن النقاد وجدوا أنه مقياس مثالي للحكم على الأعمال الإبداعية بالجودة أو الرداءة، على اعتبار أن اللفظ والمعنى أساسان هامين من أسس العمل الأدبي.

وقد حظيت هذه القضية باهتمام فائق، وكانت مدار الخلاف بين النقاد الذين أولوها عناية كبيرة، ثم أصبحت تمثل الاتجاه العام عند النقاد بعد انتشار موجة الإسراف في فن البديع، وانقسموا حولها إلى عدة طوائف منها التي تؤثر اللفظ على المعنى، وأخرى تميل إلى جانب المعنى دون اللفظ، وثالثة كانت توفيقية.

وكان الجاحظ من أوائل النقاد الذين عالجوا هذه القضية، حيث أشاد باللفظ لكنه لم يحط من قدر المعاني ولم يغض من شأنها. فالمعاني عنده: "مطروحة في الطريق، يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والحضري، والقروي والمدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخيير اللفظ وسهولة المخرج"²¹، أي أن المعاني عنده "مبسوطة إلى غير غاية، وممتدة إلى غير نهاية"²²، أما الألفاظ فهي معدودة محصورة، ولذا وجب الفضل لمن كان بارعا في المحصور الضيق من الألفاظ لا في المبسوط الممتد من المعاني²³. فالمعنى عنده إذا اكتسى لفظا حسنا، وأعاره البليغ مخرجا سهلا، صار في القلب أحلى، وللصدر أملا: " والمعاني إذا كُسيَت الألفاظ الكريمة، وألبست الأوصاف الرفيعة، تحولت في العيون عن مقادير

²⁰ حسن جاد. دراسات في النقد الأدبي. ص 56

²¹ الجاحظ. الحيوان. تحقيق: يحيى الشامي. دار مكتبة الهلال. بيروت. ط 3. 1990 م. ج 3 ص 331

²² الجاحظ. البيان والتبيين. دار الكتب العلمية. بيروت. ج 1. ص 43

²³ محمد مصطفى هدارة. مشكلة السرقات في النقد العربي، دراسة تحليلية مقارنة. ص 197

صورها، وأربت على حقائق أقدارها بقدر ما زُيِّت، وحسب ما زُخِرْفَتْ²⁴.

ومال ابن قتيبة إلى التسوية بينهما، وقسم الشعر إلى أربعة أضرب: منه جيد اللفظ وجيد المعنى، ومنه جيد اللفظ دون المعنى، ومنه جيد المعنى دون اللفظ، والقسم الأخير لم يكن جيد اللفظ ولا المعنى، وأنَّ البلاغة، على هذا الأساس، لا تكون في اللفظ وحده، ولا في المعنى منفرداً، بل تكون فيهما جميعاً، وقد تنتقصهما جميعاً²⁵.

أما المبرد فقد تناول هذه القضية بنظرة عادلة توفيقية تؤكد أن اللفظ والمعنى متلازمان، فلا غنى لأحدهما عن الآخر. لكنه اشترط فيهما شروطاً ترتقي بهما إلى مقام الجودة. ففي تقييمه للمفردة أشار إلى أن الألفاظ يجب أن تكون بيّنة، قريبة، مفهومة، حسنة الوصف، جميلة الرصف، واستشهد لذلك ببيت من الشعر الجاهلي لعنترة بن شداد يقول فيه:

يخبرك من شهد الواقعة أنني *** أغشى الوغى وأعف عند المغنم

كما استشهد ببيت للحطيئة من المخضرمين والذي يقول فيه :

وذاك فتى إن تأته في صنعة *** إلى ماله لا تأته بشفيح

ثم ضرب مثلاً للعلاقة العضوية بين اللفظ والمعنى عندما تجتمع صحة المعنى وحسنه وقرب مأخذه مع جزالة اللفظ بقول ابن ميادة لرياح بن عثمان:

أمرتك يا رياح بأمر حزم *** فقلت هشيمة من أهل نجد

نهيتك عن رجال من قريش *** على محبوبكة الأصلاب جرد

ووجد ما وجدت على رياح *** وما أغنيت شيئاً غير وجدي²⁶

وضرب مثلاً لما يستحسن لفظه ويستغرب معناه ويحمد اختصاره بقول أعرابي بني كلاب:

فمن لم يك لم يغرض فإني وناقتي *** بجر إلى أهل الحمى غرضان

تحن فتبدي ما بها من صباية *** وأخفي الذي لولا الأسى لقضاني

²⁴ الجاحظ . البيان والتبيين . ص 14

ابن قتيبة . الشعر والشعراء . دار الثقافة . بيروت . ج 1 . ص 10²⁵

²⁶ المبرد . الكامل في اللغة والأدب . تحقيق: عبد الحميد هندواوي . دار الكتب العلمية . بيروت . ط

1 . 1999 م . ج 1 . ص 95

وأبدى إعجابه بالشعر الحسن الذي يقارب فيه القائل إذا شبّه، وأصاب الحقيقة، ونبّه فيه بفتنته ما يخفى عن غيره، وساقه برصف قوي، واختصار قريب، ومثّل لذلك بقول الشاعر:

أشوقاً ولما تمضي لي غير ليلةٍ رويدَ الهوى حتى تغبّ لياليا
وأورد بيتا آخر لذي الرمة يقول فيه :

أحب المكان القفر من أجل أنني به أتغنى باسمها غير معجم
وقال معلقا عليهما: " هذا من أحسن الكلام وأوضحه معنى "27،
وعده: "مما يستحسن إنشاده من الشعر لصحة معناه، وجزالة لفظه، وكثرة
تردده، وضربه من المعاني بين الناس"28. فهو يعتقد أن جمال الألفاظ لا
يكفي وحده معيارا للحكم على جودة الشعر، بل يجب أن تصحبه براعة في
إيجاد المعاني الطريفة التي تنير العقل وتطرب النفس وتبهج القلب.
وضرب لذلك مثلا بقول الحسن بن هاني :

لم يطق حمله السلاح إلى الحر ب فأوصى المطيق ألا يقيما

وعده من التشبيه الجيد الذي لم يسبق إليه أحد29.

ودعا — في المقابل — إلى تجنب الألفاظ المستكرهة والقبیحة
والمستهجنة والمعاني البعيدة. واستشهد ببيت الفرزدق في مدح خال هشام
بن عبد الملك، والذي لجأ فيه الشاعر إلى الالتواء والتقديم والتأخير الذي
جعل المعنى غامضا ومشوها بحيث لا يفهم المراد منه إلا إذا أعيد ترتيب
كلماته ووضعها في أماكنها وضعا طبيعيا:

وما مثله في الناس إلا مملكا *** أبو أمه حي أبوه يقاربه

وانتقد أيضا ظاهرة عدم انسجام الألفاظ مع بعضها بعضا وتأثير
ذلك على المعنى الذي يفتقد بذلك الصحة والرونق، فيمجه السمع ويأباه
الذوق، وأورد للتدليل على ذلك بيت الكميت بن زيد الذي يقول فيه:

وقد رأينا بها حورا منعمة بيضا تكامل فيها الدل والشنب

واعتبره كلاما غير متآلف التركيب، ولا متآزر الألفاظ، وعلل
سبب قبح هذا الكلام بقوله: "والذي عابه نصيب من قوله (تكامل فيها الدل

27 المصدر نفسه . ج 1 . ص 294 - 295

28 المصدر نفسه . ج 1 . ص 44 - 45

29 المصدر نفسه . ج 3 . ص 140

والنشب) قبيح جدا، وذلك أن الكلام لم يجر على نظم، ولا وقع إلى جانب الكلمة ما يشاكلها، وأول ما يحتاج إليه القول أن ينظم على نسق، وأن يوضع على رسم المشاكلة³⁰.

وعاب في المعاني لجوء الشاعر إلى الغلو والمبالغة والإفراط في رسم الصورة مما يحط من قيمة النص، ويسيء إلى معناه، وأورد مثالا على ذلك قول الشاعر:

فلو أن ما أبقيت مني معلق *** بعود تمام ما تأود عودها

والثمام نبت ضعيف واحده ثمامة، وقد عده المبرد خارجا عن الصواب والحقيقة، وداخل في المحال.

وقد استند المبرد في بسط آرائه في اللفظ والمعنى على معرفة دقيقة بطرائق التعبير، وأساليب الأداء اللغوي التي كان متضلعا فيها، وإلمام تام بالشعر وأصوله، مما ألهمه نظرة موضوعية تضع القضية في ميزانها الصحيح.

ب : موقفه من قضية المفاضلة والموازنة

نقصد بالمفاضلة في هذا الميدان أن يلجأ شاعران إلى التعبير عن معنى مقصود على وزن مخصوص ، وقافية محددة، ليتسنى للمتقبل إجراء حكم الموازنة والتفضيل. وقد عرف العرب هذه المفاضلات والموازنات في العصر الجاهلي في شكل ملاحظات سريعة لبعض المتمرسين والذواقين، لكنها سرعان ما تطورت في العصر الأموي، ثم بلغت كمالها ونضجها في العصر العباسي الذي شهد ظهور كتابات كثيرة في الموازنة والمفاضلة بين الشعراء بعد أن فرض التيار الجديد نفسه.

ومن المقاييس التي وضعها المبرد لتقي الموازنة بالعرض المطلوب وتأتي بالنتيجة المتوخاة منها دون أن يظلم فيها الشعراء اشتراطه أن تكون بين الفنين أو الغرضين المتشابهين، فلا يجوز لنا أن نعقد موازنة بين فن المدح وفن الهجاء، سواء أكانا في عصر واحد أم في عصرين مختلفين ، فضلا عن ذلك أنه لا ينبغي أن تقام مفاضلة بين شاعرين أحدهما جاهلي والآخر في العصر الأموي أو العصر العباسي: "وهذه

³⁰ المبرد. الكامل ، ج 3 ، ص 18

معايير تبلورت فيما بعد وبخاصة عند الأمدى الذي أفاد من كتب المبرد وأماليه وإنشاداته³¹.

وقد طبق نظريته هذه عندما تعرض لقول الفرزدق الذي أنشد سليمان بن عبد الملك قوله :

وركب كأن الريح تطلب عندهم
سروا يخبطون الريح وهي تلفهم
إذا أنسوا ناراً يقولون ليّتها
وقد خصرت أيديهم نار غالب
لها ترّة من جذبها بالعصائب
إلى شعب الأكوار ذات الحقا ئب

فأعرض عنه سليمان لأنه كان ينتظر منه مدحا له لا فخرا بنفسه، فقال نصيب: يا أمير المؤمنين ألا أنشدك في رويها ما لعله لا يتضع عنها، فقال : هات، فأنشده:

أقول لركب صادر بين لقيتهم
قفوا خبروني عن سليمان إننى
فعا جوا فاثنوا بالذى أنت أهلة
قفوا ذات أو شال ومولاك قارب
لمعروفة من أهل ودان طالب
ولو سكتوا أثنت عليك الحقا ئب

ويعلق المبرد على هذه الرواية قائلا: "وليس شعر نصيب هذا الذي ذكرناه في المدح بأجود من قول الفرزدق في الفخر، وإنما يفاضل بين الشيبين إذا تناسبا"³². فالشاعران أجادا ولكن المفاضلة بينهما لا تكون عادلة عند المبرد لأن الأول كان يقول فخرا، بينما الثاني كان يقول مدحا.

ج: مقاربتة لقضية السرقات الأدبية

مشكلة السرقات لها جذورها في الشعر العربي، حيث أشار إليها الجاهليون إشارات عامة كقول طرفة بن العبد:

وَلَا أُغِيرُ عَلَى الْأَشْعَارِ أَسْرِفُهَا *** عَنَّا عَنَيْتُ وَشَرُّ النَّاسِ مَنْ سَرَقَا
كما فطنوا إلى تكرار المعاني في الأشعار وأخذ بعض الشعراء عن بعض كقول عنتر بن شداد :

هل غادر الشعراء من متردم *** أم هل عرفت الدار بعد توهم
وقول زهير بن أبي سلمى :

ما أرا نا نقولُ إلا مُعاداً *** أو مُعاراً من لفظنا مكرورا

<http://www.basrahcity.net/pather/report/ammh/13.html> ³¹

³² المبرد . الكامل . ج 1 . ص 182 - 184

لكنها كانت عبارة عن ملاحظات عابرة، لم تشغل الناس وتستوقفهم، غير أنها تطورت تطورا ملحوظا، وأخذت أبعادا جديدة في العصر العباسي بسبب النشاط الذي مارسه اللغويون الذين كانوا ينتصرون للشعر القديم ولا يرضون عنه بديلا في مواجهة تيار الشعر المحدث الذي ازدهر في هذا العصر ازدهارا غير مسبوق، وأبدع أصحابه في نظمه، ومالوا إلى التجديد في كثير من المعاني والأغراض، فتصدى لهم اللغويون ينتبعون عيوبهم اللغوية والنحوية ويطعنون عليهم لأنهم يعتبرون أنفسهم حماة اللغة وحراس تراثها³³، ولم يكونوا يعتدون إلا بالشعر القديم الذي يستقون منه أمثالهم وشواهدهم اللغوية، ثم صاروا يعيبون على المحدثين معانيهم ويعيرونهم بأنهم أخذوها من أشعار القدماء.

ثم انتقلت هذه الفكرة إلى النقاد الذين راحوا يحاكمون الشعراء المحدثين ويبحثون عن مواطن الأصاله والابتكار في أشعارهم، وملامح التقليد والمحاكاة عندهم، وبخاصة بعد أن شاعت نظرية استنفاد المعاني³⁴ وسرت في الأوساط النقدية، وأصبح النقاد يرون أن الشعراء المحدثين واقعون في أزمة تحد من قدرتهم على الإبداع والابتكار، وليس أمامهم من سبيل إلا أن يسطوا على معاني القدماء فيسرقونها، أو يولدوا معنى من معانيها. يقول ابن طباطبا: "والمحنة على شعراء زماننا في أشعارهم أشد منها على من كان قبلهم لأنهم قد سُبِقُوا إلى كل معنى بديع، ولفظ فصيح، وحيلة لطيفة... فإن أتوا بما يُفْصِرُ عن معاني أولئك ولا يَرَبِّي عليها لم يُتَلَقَّ بالقبول، وكان كالمطروح المملول..."³⁵.

وقد أثارت هذه القضية النقدية التي أصبحت "من صميم أبحاث النقد الأدبي"³⁶ كثيرا من الإشكاليات والآراء والمواقف المختلفة التي تناولتها من جوانب كثيرة، كل جانب منها يخضع لطبيعة الرؤية التي ينظر منها صاحبها إلى المشكلة. فإذا كان كثير من اللغويين قد استغلوا لنصرة الشعر القديم وإثبات أفضليته المطلقة على الشعر المحدث بالخط من شأن

³³ شوقي ضيف . النقد . دار المعارف . القاهرة . ط 5 . ص 49

³⁴ وليد قصاب . قضية عمود الشعر في النقد العربي القديم . ص 48

³⁵ محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي . عيار الشعر . تحقيق: عبد العزيز بن ناصر المنع . مكتبة

الخارجي . القاهرة . ط 1 . 1405 هـ - 1985 م . ص 8 - 9

³⁶ رشيد العبيدي . دراسات في النقد الأدبي . ص 81

أصحابه، فإن النقاد قد وجدوا فيها متسعا لوضع قواعد ومقاييس الجودة في إبداع الشعر من جهة، وميدانا فسيحا لإظهار غزارة محفوظهم الشعري والكشف عما يمتلكونه من سعة اطلاع ودقة نظر³⁷، ليبرزوا بذلك مواهبهم في تمييز الشعر، لأن معرفة السرقات وأنواعها والقدرة على كشفها ميزة كبيرة من مزايا الناقد البصير، يقول القاضي الجرجاني: " فالكشف عن السرقة لا ينهض به إلا الناقد البصير والعالم المبرز"³⁸

ويذهب الدارسون إلى أن قضية السرقات تنشط وتحتد كلما ظهر في الساحة شاعر مبدع يحدث تفردا وتجديدا في الشعر العربي ويصبح محل اهتمام الناس والشعراء والنقاد على السواء، لذلك اتسعت الدراسات وازدهرت قضية السرقات مع ظهور أبي نواس وأبي تمام والبحتري والمتنبي وغيرهم من رواد التجديد وأصحاب المهارات والإبداع³⁹.

وقد سائر المبرد حركة النقد في عصره، وشارك في إثراء قضية السرقات الأدبية، ونحا فيها نحو أستاذه الجاحظ الذي لم يكن يستسيغ مصطلح السرقات وكان يفضل عليه مصطلح الأخذ، لاعتقاده أن أخذ اللاحق من السابق ضرورة حتمية لا مناص منها لأنها هي التي تصقل موهبته ثم تسلمه للإبداع. لذلك تراوحت المصطلحات التي وظفها المبرد في هذا المجال في ثلاث كلمات هي الأخذ والسرقة الخفية والنظير. ولم يكن يعجزه الإسهام في هذه الحركة النقدية النشيطة، إذ كان قمة في الحفظ سواء في مروياته الشعرية أم اللغوية.

ومن الأمثلة التي أوردها في السرقات وقال إن لها نظيرا في غيرها قول بشار بن برد:

فقل لأبي يحي متى تدرك العلى *** وفي كل معروف عليك يمين
قال المبرد: "نظير قوله (وفي كل معروف عليك يمين) قول جرير :
ولا خير في مال عليه أليّة *** ولا في يمين عفت بالمائم⁴⁰
ومن بين الأمثلة التي أوردها عن السرقات قول ابن أبي عيينة:

³⁷ محمد خير. فصول في النقد . ص 15

³⁸ القاضي الجرجاني . الوساطة بين المتنبي وخصومه . تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل

إبراهيم وعلي محمد الجاوي. مطبعة عيسى البابي الحلبي. القاهرة. 1966 م . ص 183

³⁹ هند حسين طه . النظرية النقدية عند العرب . ص 98 - 99

⁴⁰ المبرد. الكامل . ج 2 . ص 22

إن الليالي والأيام أنفستها *** عن غير أنفسها لم تكتم الخبرا
قال المبرد: " فأخذ هذا المعنى حبيب بن أوس الطائي (أبو تمام) وجمعه
في ألفاظ يسيرة فقال:

عمري لقد نصح الزمان وإنه *** لمن العجائب ناصح لا يشفق
وعلق المبرد على البيتين مشيدا ببراعة أبي تمام في تجلية المعنى
وحذقه في إيجازه قائلا: " فزاد بقوله: ناصح لا يشفق على قول ابن أبي
عبيدة شيئا طريفا، وهكذا يفعل الحاذق بالكلام"⁴¹.

والجديد الذي جاء به المبرد في قضية السرقات، أنه لم يكتف
بإبراز ما جاء فيها بين الشعر والشعر، بل ذهب إلى أن هناك معان
يسرقها الشعراء من النثر ويصوغونها في أشعارهم، وأورد لذلك أمثلة
عديدة خص بها أبا العتاهية الذي اعترف له بقدرته الفائقة على التقاط
المعاني وإعادة تشكيلها، وفي ذلك يقول: "وكان إسماعيل بن القاسم لا يكاد
يُخلي شعره مما يتقدم من الأخبار والآثار فينظم ذلك الكلام المنثور،
ويتناوله أقرب متناول ويسرقه أخفى سرقة"⁴²، وأورد أمثلة على ذلك،
منها قول أبي العتاهية:

يا عجا للناس لو فكروا *** وحاسبوا أنفسهم وأبصروا
مأخوذ من قولهم "الفكر مرآة تريك حسنك من قبيحك". ومنها أيضا قوله :
وكانت في حياتك منك عطات *** وأنت اليوم أوعظ منك حيا
قال المبرد تعليقا على هذا البيت: " (وأنت اليوم أوعظ منك حيا) إنما أخذه
من قول الموبذ لقباذ الملك حيث مات، فإنه قال في ذلك الوقت: كان الملك
أمس أنطق منه اليوم، وهو اليوم أوعظ منه أمس. وأخذ قوله :
قد لعمرى حكيته لي غصص المؤ *** ت وحركتني لها وسكنتنا
من قول نادب الإسكندر. فإنه لما مات بكى من بحضرته فقال نادبه:
حركنا بسكونه"⁴³. وقوله :

الخير مما ليس يخفى هو ال *** معروف والشر هو المنكر
مأخوذ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم: " يا عبد الله كيف بك إذا بقيت في حثالة من الناس مرجت

41 المبرد. الكامل. ج 2. ص 12 - 14

42 المصدر نفسه، ج 2. ص 32

43 المصدر نفسه، ج 2، ص 32

عهودهم وأماناتهم، وصار الناس هكذا - وشبك بين أصابعه - فقلت : مرني يا رسول الله. فقال: خذ ما عرفت ودع ما أنكرت وعليك بخويصة نفسك وإياك وعوامها" . وقوله :

ما بال مَنْ أوله نطفة *** وجيفة آخره يفخر
مأخوذ من قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: " وما ابن آدم والفخر،
وإنما أوله نطفة وآخره جيفة، لا يرزق نفسه ولا يدفع حتفه"⁴⁴.
وخلاصة القول إن المبرد لم يجرم الشعراء الذين كانوا يوظفون
معاني من سبقهم في أشعارهم، ولم يعب عليهم ذلك، وكان يشير إلى هذه
الظاهرة إشارة لطيفة ويسميها في أغلب المواضع الأخذ، بل إنه يشيد
بالشاعر إذا طور المعنى المأخوذ وكساه حلة أبهى وثوبا أجمل من أصله.
كما أحدث بابا جديدا في السرقات يتمثل فيما أخذه الشعراء من النثر،
وأعطى أمثلة لذلك تدل على سعة محفوظه، وإلمامه الكبير بثقافة عصره
منظومها ومنثورها.

د : رأيه في قضية القديم والجديد

طفت معركة القديم والجديد على السطح بعد التطورات السياسية
والاجتماعية الكبيرة التي شهدتها المجتمع العربي بسبب اتساع رقعة الدولة
وتمازج الثقافات واختلاط القوميات، الأمر الذي أثر على الإبداع الأدبي
فداخله التغيير ولحقه التطور، وكان لذلك صده الذي ظهر في شكل
صراع بين فريقين: " فريق يندفع في تطوره محاولا التحلل من روابط
القديم كي يتكيف مع التطور الجديد، والفريق الثاني يتشبث بالماضي بكل
ما لديه من قوة، ويحاول جهده أن يضعف هذا الجديد ويقضي عليه"⁴⁵.
فبعد أن ظهرت طبقة الشعراء المحدثين الذين برعوا في نظم
الشعر وأحدثوا ثورة في بناء القصيدة العربية التقليدية التي كانت تكاد
تكون مقدسة، قام لفيف من الرواة واللغويين يهاجمون هذا التيار الجديد
وينتقصون منه، ويتعصبون تعصبا شديدا للقديم، ويعتبرون كل خروج عنه
من سقط المتاع حتى لو بلغ الغاية في البراعة والإبداع، واشتهر منهم أبو

⁴⁴ المصدر نفسه. ج 2. ص 34

⁴⁵ محمد مصطفى هدارة . مشكلة السرقات في النقد العربي . ص 209

عمرو بن أبي العلاء، والأصمعي، وأبو عبيدة وابن الأعرابي وغيرهم.
فابن الأعرابي مثلا عندما سمع أرجوزة أبي تمام:

وعاذل عدلته في عدله *** فظنّ أني جاهل من جهله

طلب من منشده أن يكتبها له ظنا منه أنها من شعر هذيل، حيث اعترف أنه ما سمع أحسن منها. وحين عرف أنها لأبي تمام صاح بالكاتب: خرق، خرق (أي مزقها)⁴⁶.

وكان لهذا التعصب المقيت الذي لا يستند إلى حجة واضحة سوى عامل الزمن رد فعل قويّ من المناصرين الذين تشيعوا للجديد، وقدحوا في القديم، وعابوا عليه أبنيتّه وطرائقه، وبلغ الحال ببعضهم حد التجريح كما في قول أبي نواس:

عاج الشقيّ على رسم يسائله *** وعجت أسأل عن خمارة البلد

بيكي على ظلل الماضين من أسد *** لا در درك قل لي من بنو أسد

ومن تميم ومن قيس ولفهما *** ليس الأعراب عند الله من أحد⁴⁷

ومنهم الصولي الذي أبدى انحيازه للشعر المحدث وتعصب في كتابه أخبار أبي تمام لشعر أبي تمام وقدمه على الشعراء جميعا، قدماء ومحدثين، وأثبت للمحدثين الإبداع والإجادة، والقدرة على التجديد في معاني القدماء والبراعة فيها: "إن المتأخرين إنما يجرون بريح المتقدمين، ويصبون على قوالهم، وينتجعون كلامهم، وقلما أخذ أحد منهم معنى من متقدم إلا أجاده"⁴⁸.

ووقف بعض النقاد موقفا وسطا حكموا فيه العقل والمنطق واعتبروا هذه الظاهرة أمرا طبيعيا تقتضيها تطورات الحياة التي تسير دائما إلى الأمام وتتغير فيها الأذواق وأساليب التعبير. فحاولوا قدر الإمكان أن يوقفوا بين الفريقين بعدم الاحتكام إلى عامل الزمن وإنما الرجوع في الحكم على العمل الأدبي إلى معايير الجودة العامة التي يفرضها الذوق وقواعد اللغة، لأن القدم والحداثة مسألة نسبية تختلف من عصر إلى عصر ومن جيل إلى جيل مصداقا لقول ابن رشيق القيرواني: "كل قديم من

⁴⁶ أبو بكر محمد بن يحيى الصولي. أخبار أبي تمام. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

القاهرة. 1937 م. ص 175

⁴⁷ أبو نواس. الديوان. دار بيروت للطباعة والنشر. 1978 م. ص 181

⁴⁸ أبو بكر محمد بن يحيى الصولي. أخبار أبي تمام. ص 17

الشعراء فهو محدث في زمانه بالإضافة إلى من كان قبله⁴⁹، ولأن الشعر فن من الفنون القولية: "والفنون لا تميّز بأعمارها، وإنما بالكشف عن خصائصها الفنية الجمالية"⁵⁰

فماذا كان موقف المبرد من هذه المعركة الحامية الوطيس، والتي بلغت أوجها في عصره وشغلت الكثير من النقاد؟ لقد وقف المبرد من هذه القضية موقفا وسطا بين المغالين والجاحدين، فأعطى للقديم حقه الذي يستحقه، ومنح للجديد التقدير الذي يليق به، ولم يبين نظرته النقدية للإنتاج الأدبي على القدم أو الحداثة، بل جعل الاعتبار الأول للجودة والإبداع، لذلك فإن المفاضلة بين الشعراء عنده تستند إلى القيمة الفنية للنص: "ليس لقدم العهد يفضل القائل، ولا لحدثان عهد يُهْتَمُّ المصيب، ولكن يُعْطَى كلُّ ما يستحق"⁵¹. وهو في هذا الموقف التوفيقى يلتقي مع الجاحظ الذي أعلن أنه لن يحتكم في تقييم الشعر إلا إلى الجودة والحذق في الصنعة والإبداع في السبك. ومن ذلك قوله عن أبي نواس الذي أحدث ثورة حقيقية في الشعر العربي: "وإن تأملت شعره فضلته، إلا أن تعترض عليك فيه العصبية، أو ترى أن أهل البدو أبدا أشعر، وأن المولدين لا يقاربونهم في شيء، فإن اعترض هذا الباب عليك فإنك لا تبصر الحق من الباطل ما دمت مغلوبا"⁵².

ويلتقي أيضا مع ابن قتيبة الذي صرح في كتابه (الشعر والشعراء) استحسانه لشعر المحدثين: "ولم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر على آخر مختارا له سبيل من قلد أو استحسنا باستحسان غيره، ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره، بل نظرت بعين العدل إلى الفريقين، وأعطيت كلاً حقه، ووفرت عليه حظه"⁵³، وحثه في ذلك أن الله لم يقصر العلم والشعر والبلاغة: "على زمن دون زمن، ولا خص به قوما دون قوم، بل جعل الله ذلك

⁴⁹ ابن رشيق القيرواني . العمدة . ج 1 . ص 90

⁵⁰ عثمان موافي. الخصومة بين القدماء والمحدثين في النقد العربي القديم. دار المعرفة

الجامعية. مصر. ص 16

⁵¹ المبرد . الكامل . ج 1 ص 29

⁵² الجاحظ . الحيوان . ص 228

⁵³ ابن قتيبة. الشعر والشعراء. ج 1 . ص 10

مشتركا مقسوما بين عباده في كل دهر، وجعل كل قديم حديثا في عصره"54.

وقد تجلى موقف المبرد من قضية القديم والجديد في دروسه التي كان يستشهد فيها بالشعر المحدث، ويعتمده أصلا من أصوله في أماليه على طلابه، كما أفسح له مساحة معتبرة في كتابيه الكامل والفاضل، وخصص له كتاب الروضة. واعترف في أماليه أن الميزة التي تختص بها أشعار المحدثين أنها تنبض بالحياة وتعبّر عن واقع الحال، وأنها زاد ثري للمنشئين المبتدئين حتى يأخذوا منها ما يهيئهم لأن يكونوا كتابا أو خطباء مبرزين: " هذه أشعار اخترناها من أشعار المولدين، حكيمة مستحسنة، يُحْتَأَجُّ إليها للتمثل لأنها أشكل بالدهر، ويُسْتَعَارُ من ألفاظها في المخاطبات والخطب والكتب"55. كما كان يملئ على طلابه طرفا من شعر المحدثين لأنه حاز على إعجابه فيقول: "ومما استطرفنا من شعر المحدثين"56، " ويستشهد بأشعارهم في مواضع عديدة، مؤكدا أن حدائهم لا تطعن في جمال أشعارهم وقيمتها الفنية، فيقول: "قال بعض المحدثين وليس بناقصه حظه من الصواب أنه محدث"57. وكان يتذوق بالفعل جمالها الفني ولا يتخذها مطية للاستشهاد اللغوي فقط. يقول محمد عبد المطلب: " ولقيت شواهد المحدثين اهتماما منه، لا بوصفها (وثائق لغوية) ولكن بوصفها قيمة دلالية وجمالية بالغة التأثير فيمن يتلقاها"58.

غير أن بعض الدارسين يذهبون إلى أن أشعار المحدثين التي استشهد بها المبرد وأبدى إعجابه بها كانت في أغلبها شبيهة بالشعر الجاهلي في فخامته وجزالته، لذلك عاب شعر أبي تمام واحتفى أيما احتفاء بأشعار البحري الذي سار على شريعة القدامى وتمسك بعمودهم الشعري. وقد اعتمد الذين كانوا ينكرون على أبي تمام طريقتة على موقف المبرد من أشعاره فقالوا: " وهذا أبو العباس محمد بن يزيد بن المبرد كان معرضا عنه. ما علمناه دُونَ له كبير شيء، فهذه كتبه وأماليه وإنشاداته

54 المصدر نفسه، ج 1، ص 10

55 المبرد. الكامل. ج 2. ص 1

56 المصدر نفسه. ج 3. ص 35

57 المصدر نفسه، ج 4. ص 18

58 محمد عبد المطلب. النقد الأدبي. ص 120

تدل على ذلك⁵⁹، بينما قال عن البحرّي: " ما رأيت أشعر من هذا الرجل، لولا أنه ينشدكم كما ينشدني لمأت كتبي من أمالي شعره"⁶⁰. وقد أشار عبد المحسن بدر إلى ذلك وأكد في قوله: " يُعنى بالشعر القديم، أما الحديث فلا يقترب من مجاله إلا إذا جرى مجرى القديم، وهو حين تفرض عليه الظروف التعرض للمحدثين يكون أميل إلى رفض ما جاء به المحدث واتهامه، في حين أنه إذا تعرض للقديم يكون أميل للاستحسان والقبول"⁶¹. غير أن أغلب مواقفه تدل على أنه كان عادلا ومنصفا في موقفه، وإنما فضل البحرّي على أبي تمام، لأن الأول يجنح إلى السهولة والرقّة التي لقيت هوى في نفس المبرد، بينما يرتقي الثاني الصعب ويبحث عن الغامض، وكلاهما شاعران محدثان.

وأورد الصولي في أخبار أبي تمام أن المبرد قد أبدى إعجابه الكبير بشعر أبي تمام والبحرّي وشهد لهما بالبراعة والإبداع، وأن كثيرا من أشعارهما تفوق في قيمتها الفنية أشعار الجاهليين، وأنه كان يدرك جيدا المميزات الفنية لكلا الشاعرين. يقول الصولي: "حدثني أبو العباس عبد الله بن المعتز، قال جاءني محمد بن يزيد المبرد يوما فأفضنا في ذكر أبي تمام وسألته عنه وعن البحرّي فقال: لأبي تمام استخراجات لطيفة، ومعان طريفة لا يقول مثلها البحرّي، وهو صحيح خاطر حسن الانتزاع، وشعر البحرّي أحسن استواءً. وما أشبهه أبا تمام إلا بغائص يُخرج الدر والمخشلبة"⁶². ثم قال والله إن لأبي تمام والبحرّي من المحاسن ما لو قيس بأكثر شعر الأوائل ما وجد فيه مثله"⁶³.

الخاتمة ونتائج الدراسة

وفي ختام هذه الورقة نخلص إلى أن المبرد كان صاحب خطاب نقدي أصيل، استفاه مما حوته حافظته من ثروة شعرية تمتد من العصر الجاهلي إلى أيامه، وما يتمتع به من ذوق رفيع في تمييز الشعر وتقييمه، ومعرفة جيّده من رديئه، وما وضعه من مقاييس وموازين أثناء تعرضه

⁵⁹ الأ مدي. الموازنة بين أبي تمام والبحرّي. تحقيق: أحمد صقر. دار المعارف. القاهرة. ج 1

، ص 21

⁶⁰ المصدر نفسه.

⁶¹ عبد المحسن بدر. محاضرات في النقد العربي القديم. ص 33

⁶² خَرَزٌ أبيض يشبه اللؤلؤ

⁶³ الصولي. أخبار أبي تمام. ص 202

للإنتاج الأدبي الذي يرويه ويشرحه ويقيّمه. ومن أهم القضايا النقدية التي شغلت النقاد في عصره وأدلى فيها بطلوه نذكر: قضية اللفظ والمعنى التي حاول فيها أن يكون توفيقيا حيث أكد تلازمهما وعدم أفضلية أحدهما على الآخر، والمفاضلة والموازنة، والسرقات الشعرية، والقديم والجديد، وكان له في جميعها نظرات صائبة أسست لخطاب نقدي متميز. وسنحاول في ما يلي الإشارة إلى بعض النتائج التي تمخضت عن هذه الدراسة .

1- أن المبرد كان قمة من قمم العلم في القرن الثالث الهجري ورمزا من رموز الثقافة العربية التي لا تزال تلقي بظلالها إلى يومنا هذا، فقد استطاع بما حوى من علم غزير أن يترك بصماته الواضحة في المشهد الثقافي في هذا العصر بما ألقى من أمالي وما ألف من كتب وما خرج من تلاميذ. وإذا كانت شهرته النحوية واللغوية قد غلبت عليه لرسوخ قدمه فيهما فإن له في شتى فروع المعرفة إسهامات قيمة تعبر عن موسوعيته وسعة اطلاعه، ومنها رواية الشعر والأدب والبلاغة والأخبار، والنقد وغيرها.

2 - أن خطاب المبرد النقدي كان يستند بقوة إلى ثقافته الموسوعية التي تحمله على الخوض في شتى مناحي العلوم كما كان يفعل بقية النقاد في عصره.

3 - أن خطابه النقدي يدل على امتلاكه لحاسة نقدية مرهفة يستمدّها من قدرته على تذوق النص الشعري والأدبي تذوقا راقيا.

4 - أن خطابه النقدي يركز إلى أساس متين من إمامه بالمرويات اللغوية والشعرية إماما شاملا، مكنه من مقاربة النص الأدبي مقاربة دقيقة.

5 - أن خطابه النقدي استند إلى إحاطته الواسعة بالموروث النقدي العربي، وتأسس على مرجعيات نقدية سابقة ومعاصرة له أسهمت جميعا في بلورته.

6 - أن الخطاب النقدي عند المبرد لا يزال له حضوره الفاعل في نقدنا العربي المعاصر بما أثاره من قضايا وما طرحه من أفكار وآراء.

- 7 - أن الخطاب النقدي عند المبرد كان يميل في أغلبه إلى تفضيل التيار المحافظ على تيار المحدثين والمجددين لغلبة الثقافة العربية الخالصة على تكوينه العلمي.
- 8 - أن الخطاب النقدي عنده كان كثيرا ما يختلط بالدرس البلاغي، إذ أن الحدود بين العلمين آنذاك لم تكن قد ظهرت جلية.

قائمة المصادر والمراجع

- أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي
1 - طبقات النحويين واللغويين . تحقيق: أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف. القاهرة. 1973م
- أبو الفتح عثمان بن جني
2 - سر صناعة الإعراب . تحقيق: حسن هنداوي. دار القلم . دمشق. ط1 . 1985م
- أبو العباس محمد بن يزيد المبرد
3 - الكامل في اللغة والأدب. تحقيق: عبد الحميد هنداوي. دار الكتب العلمية. بيروت. ط 1. 1999م
- أبو بكر محمد بن يحيى الصولي
4 - أخبار أبي تمام . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة . 1937م
- أبو علي الحسن بن رشيق
5 - العمدة في محاسن الشعر وآدابه. مطبعة السعادة . القاهرة. ط 2 . 1955م
- أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة
6 - الشعر والشعراء. دار الثقافة. بيروت
- أبو نواس . الديوان
7 - دار بيروت للطباعة والنشر. 1978م
- الآ مدي

- 8 - الموازنة بين أبي تمام والبحتري. تحقيق: أحمد صقر. دار المعارف. القاهرة.
- إحسان عباس
- 9 - تاريخ النقد الأدبي عند العرب. دار الثقافة. بيروت . ط 4 .
1404هـ - 1983م.
- أحمد أمين
- 10 - النقد الأدبي . مطبعة لجنة الترجمة والتأليف والنشر. القاهرة .
1963
- الجاحظ
- 11 - البيان والتبيين . دار الكتب العلمية. بيروت
- 12 - الحيوان . تحقيق: يحيى الشامي. دار مكتبة الهلال. بيروت. ط 3 .
1990م.
- حسن جاد
- 13 - دراسات في النقد الأدبي. طبعة القاهرة. 1977 م
- رشيد العبيدي
- 14 - دراسات في النقد الأدبي. مطبعة المعارف. القاهرة. ط 1 . 1972م
- شوقي ضيف
- 15 - النقد . سلسلة فنون الأدب العربي. دار المعارف . القاهرة. ط 5
- عثمان موافي
- 16 - الخصومة بين القدماء والمحدثين في النقد العربي القديم. دار
المعرفة الجامعية. مصر
- طه أحمد إبراهيم
- 17 - تاريخ النقد الأدبي عند العرب . مكتبة الفيصلية. مكة المكرمة
- عبد المحسن بدر
- 18 - محاضرات في النقد العربي القديم. جامعة بيروت . 1967م
- القاضي الجرجاني
- 19 - الوساطة بين المتنبى وخصومه . تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل
إبراهيم وعلي محمد البجاوي. مطبعة عيسى البابي الحلبي. القاهرة. 1966م

- محمد عبد الخالق عضية
20 - أبو العباس المبرد وأثره في علوم العربية. مكتبة الرشد .
الرياض. ط 1 . 1405هـ.
- محمد زغول سلام
21 - تاريخ النقد الأدبي والبلاغة حتى القرن الرابع الهجري. منشأة
المعارف. الإسكندرية
- محمد مصطفى هدارة
22 - مشكلة السرقات في النقد العربي، دراسة تحليلية مقارنة. المكتب
الإسلامي للطباعة والنشر. بيروت. ط2. 1999م
- محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي
23 - عيار الشعر. تحقيق: عبد العزيز بن ناصر المانع. مكتبة الخانجي.
القاهرة. ط 1 . 1405 هـ - 1985م
- محمد عبد المطلب
24 - النقد الأدبي. الهيئة العامة لقصور الثقافة . القاهرة. ط 1 . 2003 م
- محمد خير شيخ موسى
25 - فصول في النقد العربي وقضاياها. دار الثقافة. الدار البيضاء.
المغرب . ط 1 . 1984
- مصطفى عبد الرحمن إبراهيم
26 - في النقد الأدبي القديم عند العرب. مكة للطباعة. 1419 هـ -
1998م
- هند حسين طه
27 - النظرية النقدية عند العرب. دار الرشيد . بغداد . 1981م
- وليد قصاب
28 - قضية عمود الشعر في النقد العربي القديم. المكتبة الحديثة . العين
الإمارات العربية. ط 2 . 1985م
- ياقوت الحموي
29 - معجم الأديباء. دار الغرب الإسلامي. بيروت . ط 1 . 1993م

- 30 <http://www.basrahcity.net/pather/report/ammh/13.html>-